القسم السابع

قال تعالى : « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وفرحوا بالحياة الدنيا ، وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع . ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه . قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » .

من أهم ما يلاحظ بشأن هذا القسم وكل قسم ، الصفات المتقابلة . فلدينا هنا جملة يبسط ويقدر . ولدينا الحياة الدنيا والآخرة . ولدينا جملة يضل ويهدى . وكما هو واضح فلا زال هذا القسم يتحدث عن الفريقين من البشر أصحاب الصفات المتقابلة ، المؤمنين والكافرين . ومن أهم ما يلاحظ أن الطمأنينة فى الدنيا والهدوء من سمات المؤمنين وأن الفرح والخفة من سمات الكافرين . إنهم يفرحون ويضحكون والأولى بهم لسوء صنيعهم ومصيرهم أن يبكوا ويندبوا حظوظهم .

والآية الكريمة الأولى ، تتحدث عن بسط الله تعالى الرزق لمن يشاء من عباده وتضييقه ، عن كفار مكة الذين فرحوا بثرائهم فرح بطر وأشر ، بينما الحياة الدنيا وسيلة للآخرة ، وليست غاية فى ذاتها ، ولكن الكافرين لا يعلمون .

وحينما نفهم أن هذه الآيات من المكى من القرآن الذى نزل قبل الهجرة ، وأن الكافرين آنذاك قد بسط الله تعالى لهم فى الرزق امتحانا ، وأن المؤمنين قد قدر عليهم رزقهم ابتلاء ، فمن الجائز أن نقول : إن ابتداء الآية الكريمة ببسط الرزق الذى هو نصيب كفار مكة آنذاك ، يعتبر مظهراً من مظاهر

الاهتمام بهؤلاء الكفار ، الذين يراد منهم التنبيه للفعلة التى عرفوا بها . من اعتبارهم الحياة الدنيا غاية فى ذاتها ، لذلك هم يحرصون كل الحرص على اهتبال كل فرص النعيم واللذات .

وإن ابتداء الآية الكريمة على غرار العديد من الآيات بلفظ الجلالة « الله » فيه تنبيه لهؤلاء الكافرين إلى أن الفعال فى الأمور كلها هو الله تعالى . ومن ذلك الثراء الذى جعله الله تعالى لهم حظا ونصيبا ، مظهراً من مظاهر الابتلاء لهؤلاء الكافرين . فعلى سبيل المثال ، كان لقريش فى عام ونصف العام قبل موقعة بدر سبع قوافل تجارية غادية أو رائحة ، بين الشمال والجنوب ، فى البحر والبر على السواء(١) إن على كفار مكة أن يعوا هذه الحقيقة جيداً ، وأن يقوموا بما يجب عليهم من شكر الله تعالى ، بعبادته وحده لا شريك له ، لا أن يظنوا كما ظن قارون من قبلهم أنهم أوتوا كل ذلك على علم عندهم . إن كل شىء بإرادة الله تعالى ، ومن ذلك الفزع والاضطراب اللذان حلا بقريش بعد هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، إلى المدينة المنورة ، خوفاً على أموالهم ، بسبب الطلائع الاستكشافية فى صور السرايا التى تعترض قوافل قريش التجارية . وكان من هذه الطلائع ثلاث بقيادة النبى صلى الله عليه وسلم(٢) ومع أن الكافرين من أهل مكة يعتقدون أن الثراء الذى هم فيه ، بسبب علمهم وحذقهم واجتهادهم ، فقد كانوا فى المقابل يصرحون بأن الفقر الذى هو من نصيب المؤمنين ، إنما تم بإرادة الله تعالى . وهم لا يريدون أن يعطوا فقراء مكة شيئاً من طعام ، فضلا عما سواه . لأنهم لو أعطوا فقد خالفوا ، حسب زعمهم ، إرادة الله تعالى الذى لو شاء أن يغير حال الفقراء المؤمنين إلى الغنى لفعل . وهذا واحد من مظاهر التناقض التى يتورط فيها الكافرون الذين يشركون مع الله تعالى سواه ، ويكذبون الرسول الكريم ، والقرآن الحكيم ، وينكرون يوم القيامة . إنهم لا يتورعون عن أن يغالطوا ، وأن يكيلوا بكيلين ، وأن يفسروا الأشياء وفق أهوائهم .

---

(١) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ، د. إبراهيم شعوط : ص ٢٣ .
(٢) نفسه : ص ٢٣ .

إن الآية الكريمة تلفت الأنتباه بقوة ، إلى أن بسط الرزق وتضييقه إنما يتمان بإرادة الفعال لما يريد والذى إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون . وإن واجب كفار مكة الأثرياء ، الهدف الأول لهذه السورة الكريمة ، التى نعتقد أنها مكية فى مجموعها ، أن يعوا هذه الحقيقة ، ويقوموا بما يجب عليهم من شكر الله تعالى ، لا أن يكفروا النعمة ، ويفرحوا بهذه الدنيا فرح أشر وبطر ، باعتبارها غاية فى ذاتها . إن عليهم أن يعلموا أن بعد هذه الحياة حياة أخرى وأن يعملوا وفق هذا العلم فى ضوء تعاليم الإسلام بعد أن تحولوا مسلمين لله رب العالمين ، كى يدخلوا الجنة ، التى لا يقاس بنعيمها السرمدى نعيم الدنيا الناقص المحدود الأجل . « وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع » إن النسبة غير موجودة أساساً بين نعيم الدنيا ونعيم الجنة الذى أعد للمتقين . إن نعيم الدنيا القصير المشوب بالأكدار ، تعبر عنه الآية الكريمة فى مجال المقارنة بينه وبين نعيم الآخرة ، من حيث القيمة والطول ، بأنه بمثابة المتاع . أما أن قيمة المتاع رخيصة ، فنستطيع أن نعرفها حينما تنظر فى هذه السورة الكريمة إلى الآية التى تتحدث عن جوهر المعادن وزبدها . قال تعالى : « ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله » .

إن الحلية ، ويراد بها الزينة ، وأساسها الذهب والفضة . وإن المتاع ، ويراد به الآنية والآلات ، ومصدرها الحديد والصفر والنحاس (بضم الصاد والنون فيهما) والرصاص (بفتح الراء) وما فى حكمها . إن هذه المجموعة من المعادن رخيصة القيمة لكثرتها ورداءتها بالقياس إلى الذهب والفضة مثلا . وقد عبر عن الآلات والأدوات التى تصنع منها بأنها متاع . وكذلك متاع الدنيا رخيص ولا قيمة له بالقياس إلى نعيم الآخرة .

وأما أن مدة متاع الدنيا محدودة وقصيرة ، فى الإمكان أن نفهم ذلك من قولهم : متع النهار ، إذا ارتفع قبل الزوال والضحى ، بمعنى بلغ آخر غايته(١) . فلا بد له من زوال(٢) فلكل شىء إذا ما تم نقصان . وليس

---

(١) انظر القاموس « متع » .

(٢) تفسير القرطبى ، ص ٣٥٤٣ . والبحر المحيط : ٥/٣٨٨ .

وليس بعد الصعود إلا النزول . وخاصة صعود القمة ، على غرار قولهم : متع النهار . ومنه أخذ المتاع ، دليلا على الشيء القليل الحقير الذاهب . « عن مجاهد : وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع . قال : قليل ذاهب »(١) وقال الزمخشرى(٢) : « وخفى عليهم أن نعيم الدنيا فى جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً نزراً يتمتع به ، كعجالة الراكب ، وهو ما يتعجله من تمرات أو شربة سويق أو نحو ذلك » .

ونستطيع أن نفهم أن فى الآية الكريمة تسلية لفقراء المسلمين وتثبتاً لأفئدتهم . وحينما يوقن المؤمن أن الفعال فى الأمور كلها هو الله تعالى ، فإن حياته تتحول طمأنينة كاملة ، وليس وراء نعمة الطمأنينة والأمن نعمة ، فإنهما أساس السعادة والعافية .

فإذا مضينا إلى الآية الكريمة التالية : «**ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه . قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب** » . فإنا نتبين أن بين صدرها وبين صدر الآية الكريمة السابعة السابقة تشابها كاملا « **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد** » وكما هو واضح فإن الاختلاف يتركز بين عجزى الآيتين الكريمتين . ويلاحظ بشأن العجز فى الآية السابعة ، أن الخطاب يتوجه فى جملته إلى الرسول الكريم . وإذا كان الشق الأول منه خاصا بالرسول الكريم : « إنما أنت منذر » فإن له عليه الصلاة والسلام ، من الشق الثانى نصيباً غير منقوص . هذا بالإضافة إلى أن العجز كله يشير إلى وظيفتى الرسول الكريم ، التبشير والإنذار . وإلى الموقفين المختلفين من الدعوة إلى الله تعالى ، موقف المؤمنين وموقف المكذبين .

فإذا تحولنا إلى عجز الآية السابعة والعشرين التى نحن بصددها فإنا نتبين أن الخطاب وإن كان موجهاً إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فإنه

---

(١) تفسير الطبرى : ١٣-٩٧ .
(٢) الكشاف : ٢-١٦٥ .

مقصور على جملة « قل » التى تعنى أن وظيفة الرسول الكريم البلاغ والبلاغ فقط . وما تلا هذه الجملة هو مقول القول : « إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب » . ويلاحظ أن المقابلة قدمت ما يخص الكافرين ، لأنهم هم السائلون فى الآية الكريمة ، مجموعة من الخوارق المادية والمعجزات الحسية ، ولأنهم هم الهدف الأول لهذه السورة الكريمة . وبما أن من أهم صفات هذه السورة الكريمة ، الجمع بين الصفات المتقابلة ، فإنها تحدثت بعد ذلك عما يخص المؤمنين . تماماً كما حدث بشأن عجز الآية السابعة من قبل . ولكن التعبير هنا ، يتجه نحو المؤمنين اتجاها ملحوظاً . فبعد أن كان للإنذار من ذى قبل موضعه ، أصبح للتبشير الآن موضعه . وقد كان المنعطف للاتجاه الملحوظ نحو المؤمنين المهديين ، جملة « أناب » التى ختمت بها الآية الكريمة ، فلا شك أن ثمة فرقاً جوهرياً بالقياس إلى ما يهدف إليه مثلا قوله تعالى من سورة المدثر : « **كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء** »(١) إن عجز الآية الكريمة من سورة الرعد ، يريد أن ينبه إلى أن للمؤمنين دوراً إيجابياً فى وصولهم ، بعونه تعالى ، إلى هذه النهاية الحميدة . ويفهم من هذا ضمناً ، أن للكافرين دوراً كذلك ، فى وصولهم ، بعلمه عز وجل وإرادته ، إلى تلك النهاية السيئة . إن المؤمنين أنابوا إلى الله تعالى فهداهم ربهم إليه عز وجل . « إلى دينه وشرعه »(٢) وإن الكافرين انصرفوا فصرف الله قلوبهم عنه . إن الوسائل التى تسنى للمؤمن عن طريقها أن يدخل ، بعون الله تعالى ، الجنة ، قد تيسرت للكافر ، ولكن المؤمن كان لديه الاستعداد للإقبال . والكافر كان لديه الاستعداد للإدبار . المؤمن انتفع بما علم بأن انقاد لعقله وخالف الهوى . والكافر لم ينتفع بما علم ، بأن انقاد لهواه وخالف العقل ، أو عطل هذه النعمة التى يمتاز بها ، عن أن تعمل . إن المؤمن المقبل على الله تعالى ، والذى هداه الله تعالى فى مقابل رغبته الصادقة ، فى معرفة الحقيقة والانتفاع بها ، جاء عنه قوله تعالى فى سورة يونس : « **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات**

---

(١) آية : ٣١ .

(٢) البحر المحيط : ٥-٣٨٩ .

النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين »(١) . وقوله تعالى فى سورة العنكبوت « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا . وإن الله لمع المحسنين »(٢) . وإن الكافر المدبر عن الله تعالى ، المنكر ليوم القيامة ، والذى رضى بالحياة الدنيا . واطمأن بها . وغفل عن آيات الله تعالى ، وفى مقدمتها القرآن الكريم ، جاء عنه قوله تعالى « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » (٣) . إن آيات الله تعالى ، وفى مقدمتها القرآن الكريم ، تهدى للتى هى أقوم . ولكنهم رفضوا الهداية ، واستحبوا العمى على الهدي « فكفروا وتولوا واستغنى الله . والله غنى حميد »(٤) لقد جاء فى سورة التوبة ما يفيد زيادة الإيمان بشأن المؤمنين ، وزيادة الكفر والنفاق ، بشأن الكافرين والمنافقين بنزول سور القرآن الكريم . قال تعالى :« يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين . وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا . فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون . أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون . وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا . صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون » .(٥)

لقد أشارت الآية السابقة إلى أن الثراء والفقر بمشيئة الله تعالى وإرادته . وأشارت هذه الآية الكريمة إلى أن ضلال الكافرين بمشيئته تعالى ، وأن هدى المؤمنين بسبب إنابتهم إلى الله تعالى . إن حديث الآية الكريمة عن هداية

---

(١) آية : ٩ ، ١٠ .
(٢) آية : ٦٩ .
(٣) يونس : ٧ ، ٨ .
(٤) التغابن : ٦ .
(٥) الآيات : ١٢٣ – ١٢٧ .

المؤمنين فى هذه الطريقة التى تفيد أن المؤمنين لهم دورهم فى الوصول إلى هذه النتيجة الحميدة ، يعنى أن الكافرين لهم دورهم فى الوصول إلى تلك النتيجة السيئة . وكيف لا يكون الأمر كذلك ، وإن الوسائل التى كانت سبب هداية المؤمنين ، قد أتيحت للكافرين الذين استحبوا بمحض إرادتهم هذا الموقف السيىء من الدعوة إلى صراط العزيز الحميد . وقد سبق إلى علمه عز وجل الذى ليس للزمن علاقة به البته هذا الموقف . فحينما يعبر فى سورة المدثر فى هذه الصورة عن الضلال والهداية(١) « كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء » وحينما يعبر فى هذه الآية الكريمة عن الضلال والهداية : « **قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب** » إنما يراد التعبير عن علم الله المطلق ، والذى ليس للزمن علاقة به أبداً ، عن موقف كل من الكافرين والمؤمنين ، بمحض إرادتهم من الدعوة إلى صراط العزيز الحميد . إن كلا من المؤمن والكافر مسئول عن كل ما صدر عنه . وسيثاب المحسن يوم القيامة وفق إحسانه . وسيعاقب المسيىء وفق إساءته . « **ولا يظلم ربك أحدا** »(٢) .

وما هى أهم صفة لأولئك الذين يهديهم ربهم لإنابتهم إليه ؟ هناك صفتان تبنى ثانيتهما على الأولى . الإيمان والاطمئنان . قال تعالى : « **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ». عن قتادة ، قوله : وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، يقول : سكنت إلى ذكر الله واستأنست به »(٣) إن الإيمان أول صفة لهؤلاء الذين أنابوا إلى ربهم . ولأنهم فعلوا الأوامر واجتنبوا النواهى ، فقد امتلأت نفوسهم بين جنوبهم بسعادة غامرة تلازمهم دائماً وأبداً . وقد عبرت الآية الكريمة عن هذا الشعور الفياض من السعادة فى صيغة الزمن المضارع « وتطمئن قلوبهم بذكر الله » دليلا على أن هذا الاطمئنان ملازم لهم فى كل حركة من حركاتهم وسكنة من سكناتهم . إن

---

(١) آية : ٣١ .
(٢) الكهف : ٤٩ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٣ - ٩٧ .

هؤلاء المؤمنين ، مع أنهم شعلة من العمل والنشاط ، فإنهم كلهم يقين ، بأن الفعال فى الأمور كلها هو الله تعالى وحده لا شريك له . لذلك حينما تجرى الرياح بما لا تشتهى سفن آمالهم وأعمالهم ، هم يمثلون قمة الإيمان بأن ما حدث هو لحكمة يريدها الله تعالى . لذلك هم دائماً وأبداً مشرقو المحيا ، راضية نفوسهم ، مطمئنة قلوبهم « يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »(١) وليس هذا الهدوء الذى يبدو فى المشى وطيب القول ، إلا ثمرة لاطمئنان اليقين فى الداخل . وما أكبر نعمة هذا الاطمئنان لقضاء الله وقدره ، وقد عمل المؤمن جاهدا وفق تعاليم الدين الذى رضيه الله تعالى لعباده . وقد عبرت هذه الآية الكريمة من سورة النحل عن اطمئنان اليقين الذى هو صفة خاصة بعباد الرحمن ، بأنه الحياة الطيبة فى الدنيا بين يدى النعيم المقيم يوم القيامة . قال تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .(٢)

وتنبه آية الرعد الكريمة المؤمنين إلى أن الحياة الطيبة التى تتجلى فى اطمئنان اليقين ، إنما يحصلون عليها بذكر الله تعالى « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » إن المؤمن حينما يتأمل هذا الوجود ، وينتهى إلى أن الفعال لما يريد هو المسير لكل ذرة فيه ، بما فى ذلك الإنسان نفسه ، فإن قلبه لا يمكن إلا أن يطمئن ، فكيف وكلام رب العالمين بين يدى هذا المؤمن وأمام عينيه ، فى ذات الصورة التى نزل فيها على خاتم الأنبياء والمرسلين ؟ لا شك أن هذا مما يزيد المؤمن اطمئناناً إلى اطمئنانه ويقيناً إلى يقينه . ونحن حينما نتبين أن الإنسانية تتجه بمرور الأيام نحو القلق المتزايد والاضطراب النامى ، لا نملك سوى القول : إن على هذه الإنسانية المعذبة بعقلها أن تعود إلى بارئها ، كى تأخذ لنفسها حظاً من اطمئنان الإيمان وبرد اليقين . وإن خير قائد إلى كل ذلك هو القرآن الكريم ، وسنة سيد المرسلين . قال عز من قائل :

---

(١) الفرقان : ٦٣ .

(٢) آية : ٩٧ .

« يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون »(١) . وقال : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون »(٢) . وقال : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً »(٣) . وقال : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما »(٤)إن قلوب المؤمنين فقط ، هى التى تطمئن بذكر الله تعالى . قال تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . أما الكافرون فقد جاء عنهم قوله تعالى فى سورة الإسراء : « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً . وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا . وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا . نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى ، إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا »(٥) .

وهكذا يتبين « أنه بذكره تعالى تطمئن القلوب لا بالآيات المقترحة ، بل ربما كفر بعدها فنزل العذاب كما سلف فى بعض الأمم »(٦) ويقول القرطبى (٧) : « أى كما أضلكم بعدما أنزل من الآيات وحرمكم الاستدلال بها ، يضلكم عند نزول غيرها » .

وإذا كانت الآية الكريمة السابقة تتحدث عن اطمئنان الإيمان الذى يسعد به المؤمن فى حياته الدنيا ، فإن الآية التالية تتحدث عن النعيم المقيم والثواب

---

(١) يونس : ٥٧ ، ٥٨ .
(٢) الأنفال : ٢٤ .
(٣) الإسراء : ٨٢ .
(٤) الإسراء : ٩ ، ١٠ .
(٥) الآيات : ٤٤ - ٤٨ .
(٦) البحر المحيط : ٥ - ٣٨٩ .
(٧) التفسير : ص ٣٦٤٥ .

العميم الذى هو من نصيب هؤلاء المؤمنين الذين يمتازون بعملهم للصالحات . قال تعالى : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » إن الإيمان إذا كان من ذى قبل قد تجلى فى ذوات هؤلاء المؤمنين ، فى هيئة اطمئنان القلب ، واللسان الرطب ، والمشى الهين اللين ، فإن الإيمان يتجلى الآن فى العمل الصالح فى كل من مجالات العبادة والسلوك والمعاملات .

وإذا كانت الحياة الطيبة فى الدنيا من نصيب هؤلاء المؤمنين أولا ، فإن « الحالة المستطابة لهم »(١) فى الآخرة من نصيبهم آخرا . « وطوبى ، مصدر من طاب كبشرى وزلفى »(٢) وسقيا ورجعى وعقبى(٣) « والمعنى ، العيش الطيب لهم »(٤) واللام فى لهم للبيان ، مثلها فى سقيا لك(٥) « عن قتادة ، طوبى لهم : هذه كلمة عربية . يقول الرجل : طوبى لك أى أصبت خيرا »(٦) « ومحلها النصب أو الرفع ، كقولك : طيباً لك وطيب لك . وسلاماً لك وسلام لك »(٧) ولا يخفى أن الصيغة التى تجىء فيها لفظة طوبى ، تعنى أن حظ هؤلاء من طيب الجزاء والثواب ، ليس عليه من مزيد . وعمق ذلك بحسن المآب ، أى المرجع والمآل حيث فى الجنة « يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب . وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون »(٨).

ونود أن نشير إلى ما بين الآيتين الثانية والرابعة « أناب » و « مآب » من توافق معنوى يتجلى فى إفادة العودة بشأن الإنابة إلى الله تعالى ، بمعنى الرجوع إليه والاستعانة به والتضرع لديه(٩) فى الأولى . وبشأن الأوبة الحسنة بالجنة وحسن المنقلب فى الثانية . هذا إلى الوفاق صوتياً وفى الفاصلة بشأن « أناب » و « مآب » .

---

(١) تفسير القرطبى : ص ٣٥٤٤ .
(٢) الكشاف : ٢-١٦٦ .
(٣) البحر المحيط : ٥-٣٨٩ .
(٤) البحر المحيط : ٥ - ٣٨٩ .
(٥) البحر المحيط : ٥ - ٣٩٠ .
(٦) تفسير الطبرى : ١٣ - ٩٨ .
(٧) الكشاف : ٢-١٦٦ .
(٨) الزخرف : ٧١ .
(٩) تفسير ابن كثير : ٢-٥١٢ .

القسم الثامن

قال تعالى : «كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن . قل هو ربى لا إله إلا هو ، عليه توكلت وإليه متاب . ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعاً . أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً . ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتى وعد الله . إن الله لا يخلف الميعاد . ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب».

إن لله سنناً لا تتغير ولا تتبدل . وقد أشارت هذه الآيات إلى مجموعة من هذه السنن . منها إرسال الرسل للأمم السابقة . ومنها أن اختيار نوع المعجزة إنما يتم بإرادة الله تعالى التى تعلم أنها كفيلة بهداية سليمى الطوية صحيحى العقول ، إلى سبيل الرشاد ، وليس وفق رغبة العباد . ومنها أن لكل معجزة وظيفتها ، فلا يصح أن يطلب منها فوق ما أريد منها . ومنها أن كلمة الله تعالى قد سبقت بأن جنده هم الغالبون ، وعباده هم المنصورون ، فلن ينفع الكافرين كفرهم ولا استهزاؤهم .

فمع الآية الكريمة الأولى ، التى يتوجه الخطاب فيها للمصطفى صلى الله عليه وسلم . قال تعالى :« **كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله إلا هو ، عليه توكلت وإليه متاب** » . لقد شاءت إرادة الله تعالى أن يبعث إلى كل أمة رسولا لإخراجهم بإرادته عز وجل من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد . قال تعالى : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير »(١) . و « قد خلت

---

(١) فاطـر : ٢٤

من قبلها أمم : أى تقدمتها أمم كثيرة »(١) والآية الكريمة تشير إلى سنة الله تعالى هذه ، حيث قد أرسل خاتم الأنبياء والمرسلين إلى هذه الأمة ، مثل إرسال الأنبياء والرسل السابقين إلى أممهم . إن أمة العرب ، التى كان لها شرف إرسال الرسول فيها ، وإنزال آخر الكتب السماوية عليه بلسانها واضطلاعها بمهمة القيام بواجبات هذه الرسالة ، كان قد بعد عهدها برسالات السماء . جاء فى سورة يس . قوله تعالى : « لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون »(٢) . وأكبر دليل على بعد القوم بتعاليم السماء هو ما أدخلوه فى البقية القليلة من تعاليم الحنيفية السمحة ، مما ليس منها . وكفانا دليلا على ذلك انحرافهم بتعاليم الحج إلى بيت الله الحرام ، وإدخالهم فى هذه الشعيرة ما ليس منها ، مما لم ينزل الله تعالى به من سلطان . فالرسول الكريم قد أرسل إلى هذه الأمة ، على غرار إرسال الرسل السابقين إلى الأمم الغابرة .

وبما أن إرسال الرسول الكريم إنما يتم لإخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فانظر إلى الطريقة التى تعبر فيها الآية الكريمة عن هذا الهدف العظيم « لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك » إن تلاوة القرآن الكريم تلاوة تليق بمقامه ، والعمل بمقتضاه ، كل ذلك يعبر به عن ذلك الهدف العظيم ، عبادة الله تعالى وحده لا شريك له . وحق للقرآن الكريم ، كلام رب العالمين ، الذى نزل به الروح الأمين ، جبريل عليه السلام ، بلسان عربى مبين ، على قلب خاتم الأنبياء والمرسلين ، والذى تكفل عز وجل بحفظه إلى أن يرث جل وعلا الأرض ومن عليها ، حق للقرآن الكريم ، التى تلك صفاته ، أن يعبر عن تلاوته بأنها السبب فى إرسال الرسول الكريم إلى هذه الأمة ، التى ما أنذر آباؤها فهى غافلة عن الهدف من وجودها فى هذه الحياة . إن القرآن الكريم ، هو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، وحبل الله تعالى المتين . وحينما يطبق المسلمون تعاليمه كلها ، يجدون أنفسهم قد أطاعوا الله تعالى وأطاعوا رسوله الكريم ، وتمسكوا بتعاليم رب العالمين

---

(١) البحر المحيط : ٥-٣٩٠ .

(٢) آية : ٦ .

وتعاليم سيد الأنبياء والمرسلين ، فإن طاعة الرسول الكريم ، بنص القرآن الكريم ، طاعة لله تعالى .

ومع أن للقرآن الكريم كل هذه المنزلة ، بحيث إن إرسال خاتم الأنبياء والمرسلين ، كان من أجل تلاوة القرآن الكريم على قومه ، لإخراجهم من ظلمات الشرك إلى النور ، كي يحققوا الهدف الذى خلقوا من أجله ، وهو عبادة الله تعالى ، فإن هؤلاء القوم يكفرون بالرحمن ، البليغ الرحمة ، والذى وسعت رحمته كل شيء . إنهم ينكرون أن يكون القرآن الكريم كلام رب العالمين ، وبذلك هم يكذبون الرسول الكريم ، وينكرون يوم القيامة . لأن معنى إنكار كون القرآن الكريم كلام رب العالمين ، ألا تطبق تعاليمه . فالكافرون يكفرون بالرحمن الذى أرسل رسوله الرحمة المهداة ، وأنزل عليه كتابه النور المبين . بل إن كفار مكة ليعطلون كفاءتهم البيانية واللغوية ، حينما يزعمون أنهم يعرفون البر الرحيم بلفظ الرحمن ، مع أنهم يستعملون ألفاظاً أخرى مشتقة من الأصل اللغوى الواحد « الرحمة » وبعضها قريب الشبه جداً فى الدلالة على معنى الرحمن ، أعنى لفظة الرحيم . إنهم لا يكلفون أنفسهم مهمة الانتفاع من العقل ونعمة البيان التي بها يمتازون على غيرهم ، لذا هم حينما يطلب منهم أن يسجدوا للرحمن ، الواحد الأحد الفرد الصمد ، هم يتظاهرون بأنهم لا يعرفون المقصود بلفظة الرحمن . قال تعالى فى سورة الفرقان : « **وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا** »(١) . ويلاحظ أنهم يلجأون إلى « ما » التي يعبرون بها عن المجهـــول « وما الرحمن » بل إنهم يقولون إنا لا نعرف بالرحمن إلا مسيلمة(٢)إنهم « يكفرون بالرحمن ، لا يقرون به ، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم . ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم . وقالوا ما ندرى ما الرحمن الرحيم .

---

(١) آية : ٦٠ .

(٢) البحر المحيط : ٥ - ٣٩٠ .

قال قتادة ، والحديث فى صحيح البخارى . . . وفى صحيح مسلم عن عبد الله ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن »(١) .

وحينما يدعو المصطفى صلى الله عليه وسلم ربه قائلا : يا الله يا رحمن ، هم يزعمون مغالطين بأن محمداً يدعو إلهين اثنين . بينما يأمرهم هم أن يفردوه عز وجل وحده لا شريك له بالعبادة . وإلى ذلك أشارت سورة الإسراء ، قال تعالى : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى . ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا . وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا » (٢) . إن كفار مكة يجعلون من هذا التجاهل والتغلب ذريعة لبقائهم على الشرك والقول كما جاء فى سورة الجاثية قال تعالى: « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون »(٣) .

وبما أن وظيفة رسل الله تعالى الرئيسية ، الدعوة إلى إفراد الله تعالى بالعبادة ، فإن الآية الكريمة تأمر المصطفى صلى الله عليه وسلم ، بأن يخبر الكافرين بما يؤدى إلى تبديد شكوكهم ومغالطاتهم : « قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب » . قل يا محمد ، إن الرحمن الذى تكفرون به هو ربى الذى ربانى بنعمه ، وتعهدنى برعايته ، لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، وإن تعددت أسماء صفاته . هو الذى أتوكل عليه وحده ، فى كل شئونى بهذه الحياة الدنيا وإليه « مرجعى غداً »(٤) فيثيبنى على مصابرتكم

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢-٥١٥ .
(٢) آية : ١١٠ ، ١١١ .
(٣) آية : ٢٤ .
(٤) تفسير القرطبى : ص ٢٥٤٧ .

ومجاهدتكم(١) إنه لا يستحق ذلك أحد سواه(٢) والمتاب مصدر ، من قول القائل : تبت متاباً وتوبة(٣) .

فإذا تحولنا إلى الآية الكريمة التالية : « **ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل الله الأمر جميعاً أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً . ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتى وعد الله ، إن الله لا يخلف الميعاد** » . فإنا نتبين أنها تتحدث ابتداء عن القرآن. وهو وإن كان يفهم منه أساساً القرآن الكريم ، آخر الكتب السماوية ، فإنه يدل على جملة الوحى الذى أوحى الله تعالى به إلى رسله ، كصحف إبراهيم وزبور داود وتوراة موسى ، وانجيل عيسى ، عليهم الصلاة والسلام . روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خفف عن داود القرآن فكان يأمر بدابته أن تسرج ، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته . . . . والمراد بالقرآن الزبور(٤) وقد أطلقت لفظة القرآن فى الآية الكريمة لسببين رئيسيين . الأول هو أن القراءة صفة لاصقة بوحى الله تعالى إلى رسله . والثانى هو أن إطلاق لفظة القرآن ، وليس الكتاب مثلا ، على كل الكتب السماوية ، بينما اللفظة خاصة أساساً بالقرآن الكريم ، الذى أنزل على عبد الله تعالى ، محمد صلى الله عليه وسلم ، النبى الأمى الذى يستطيع أن يتلو بلسانه ما يسمع بأذنيه فقط ، كما جاء فى سورة القيامة . قال تعالى : « **لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه** »(٥) لأنه عليه

---

(١) الكشاف : ٢-١٦٦ .
(٢) تفسير ابن كثير : ٢-٥١٥ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٣-١٠١ .
(٤) تفسير ابن كثير : ٢-٥١٥ .
(٥) الآيات : ١٦ - ١٩ .

الصلاة والسلام لا يقرأ ولا يكتب ، أما موسى وعيسى عليهما السلام مثلا ، فقد كانا قارئين كاتبين ، إن إطلاق لفظة القرآن على كل الكتب السماوية السابقة ، يوحى بالمكان الفريد لأشرف الكتب السماوية ، المصدق للكتب السماوية السابقة ، المهيمن عليها ، مما يعتبر دليلا على أن الإسلام ناسخ للديانات السماوية السابقة . وهو دليل يضاف إلى الدليل الآخر الدال على الشيء ذاته ، حينما يؤثر القرآن الكريم ، استعمال لفظة المسجد ، الدالة على مكان العبادة فى الإسلام ، على اللفظة التى تدل على مكان العبادة فى اليهودية ، وذلك فى قوله تعالى من سورة الإسراء عن بنى اسرائيل : « **فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا** »(١)وعلى اللفظة التى تدل على مكان العبادةفى المسيحية ، وذلك فى قوله تعالى من سورة الكهف : بشأن الفتية اتباع عيسى عليه السلام الذين آمنوا بربهم : « **قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً** »(٢) .

والملاحظ أن القرآن الكريم يجمع فى نسق بين أماكن العبادة فى هذه الديانات السماوية الثلاث ، حينما يقتضى السياق ذلك . جاء فى سورة الحج . قوله تعالى : « **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز** »(٣) .

ويقال إن سبب نزول آية سورة الرعد ، أن كفار مكة طلبوا من الرسول الكريم ، إن كان حريصا على إيمانهم أن ينقل عنهم جبال مكة ، وأن يفجر من الأرض عيوناً وأنهاراً كى يزرعوا ، وأن يحيى موتاهم(٤) وأن المؤمنين ، حرصا منهم على أن يؤمن الكافرون ، كان لديهم الرغبة

---

(١) آية : ٧ .
(٢) آية : ٢١ .
(٣) آية : ٤٠ .
(٤) انظر البحر المحيط : ٥-٣٩١ . وتفسير الطبرى : ١٣-١٠٢ .

أن يتحقق كل ذلك . لذا نتبين أن الآية الكريمة تلفت الأنتباه بشدة إلى منزلة القرآن الكريم الرفيعة العالية ، أكبر معجزات هذا الدين الذى رضيه الله تعالى لعباده ، وأكبر المعجزات قاطبة ، منبهة إلى أن إرادة الله تعالى ، التى تعلم المعجزات التى تنتفع بها كل أمة ، هى التى ارتضت القرآن الكريم معجزة لخاتم النبيين ، الذى بعث فى أمة ، البيان أعظم بضاعتها ، بمعنى أن معجزة القرآن الكريم الخالدة ، أكبر من كل المعجزات المادية الحسية ، من نقل الجبال وتفجير العيون والأنهار ، وإحياء الموتى ، التى طلب كفار مكة(١) ومع ذلك فإنه لو صح لكتاب سماوى أن يحقق أمثال هذه المعجزات لكان الأولى بذلك كله هو القرآن الكريم ، لأنه هو الكتاب السماوى الوحيد الذى تحدى رب العزة به الثقلين الإنس والجن . فعجزوا عن الإتيان بسورة واحدة من مثله . فضلا عما وراء ذلك . « ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من نبي إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة . معناه أن معجزة كل نبي انقرضت بموته . وهذا القرآن حجة باقية على الآباد ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا يشبع منه العلماء . هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله . ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله »(٢) .

إن نقل الجبال وتفجير العيون والأنهار وإحياء الموتى ، بواسطة كتب الله تعالى ، بما فى ذلك القرآن الكريم ، أمر لم تجربه سنة الله تعالى . لذلك فلن يتحقق شيء مما طلب الأقوام فى هذا الشأن . ولماذا لم تجر سنة الله تعالى بذلك ؟ لأن إيمان الكافرين بمعجزات رسل الله تعالى إليهم ، يتحقق بإرادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وليس بالمعجزات الحسية التى يطلبها القوم ، إن جداً وإن هزلا ، فقد سبق علمه تعالى إلى نوع المعجزة أو المعجزات التى تناسب كل أمة من الأمم ، بدليل أن كفار مكة ، وهم

---

(١) انظر البحر المحيط : ٥-٣٩١ .

(٢) تفسير ابن كثير : ٥١٥ .

فرسان البيان ، ينكرون أن يكون القرآن الكريم ، وهو معجزة الإسلام الكبرى الخالدة ، كلام رب العالمين . إنهم يرفضون أن يذعنوا للمعجزة التى هى من جنس ما نبغوا فيه ، فكيف ينتظر من هؤلاء المشوشين فكرياً والظالمين والكافرين أن يذعنوا لمعجزات مادية أخرى ، هى تقل فى حقهم عن القرآن الكريم فى كل شىء ، لأن القرآن الكريم معجز لهم فى ميدان تفوقهم ، وليس كذلك المعجزات المادية الحسية ، ولأن القرآن الكريم خالد إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها ، فهو قادر دائماً وأبداً على إرضاء كل عقل بفصوص حكمه ، وإشباع كل نفس بجمال رونقه ، وملء كل أذن بحلاوة جرسه ، بينما المعجزات المادية الحسية محدودة بزمان معين ومكان معين وفئة معينة . لقد سبق علمه تعالى بشأن كفار مكة إلى أنهم لو فرض أن بعض المعجزات التى طلبوا قد تحقق — ويلاحظ أن بعضها يستحيل عقلا تحقيقه ، بل يستحيل عقلا طلبه ، كأن يروا الله تعالى والملائكة قبيلا — فإنهم لن يؤمنوا . وإلى ذلك أشار قوله تعالى فى سورة الأنبياء : **« بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر . فليأتنا بآية كما أرسل الأولون . ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون »**(١) .

ولما كانت سنة الله تعالى قد جرت بأن يهلك الذين يصرون على كفرهم بعد أن تتحقق بإرادة الله تعالى المعجزات التى طلبوا ، ولما كانت إرادة الله تعالى قد شاءت أن تمهل كفار مكة علهم يرعوون إلى طريق الهدى ، فلم تشأ إرادة الله تعالى استئصال شأفتهم ، لذا فقد كان من الطبيعى ألا تلبى طلبات كفار مكة الحمقى المغفلين ، الذين بلغ بهم الحمق أن جاء على لسانهم فى سورة الأنفال . قوله تعالى : **« وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم »**(٢). وجاء فى سورة الحجر ، ما يفيد كل ذلك . قال تعالى : **« وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين . ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذن منظرين . إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »**(٣).

---

(١) آية : ٥ ، ٦ .
(٢) آية : ٣٢ .
(٣) الآيات : ٦ — ٩ .

وقد حذف فى الآية الكريمة جواب لو إيجازا . والتقدير : لكان هذا القرآن(١) لأنه معلوم . وحذف جواب لو لدلالة المعنى عليه جائز ، نحو قوله تعالى(٢) : « ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب »(٣) . « ولو ترى إذ وقفوا على النار »(٤) وقال امرؤ القيس :

فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفسا

يعنى لهان على(٥) .

وقد أشارت الجزئية التالية : « بل لله الأمر جميعاً » إلى أن إيمان من آمن ، وكفر من كفر ، رهن بإرادة الله تعالى وحده لا شريك له ، الذى سبق إلى علمه إيمان من سيؤمن ، وكفر من سيكفر . إن من لديه الاستعداد لأن يؤمن يجد فى القرآن الكريم أكبر معين له على الإيمان ، فإذا أغمض الكافر عينيه عن أكثر آيات الله دلالة على قدرته ، فمن باب الأولى والأحرى أن يغمض عينيه عما يقل عن تلك الآية منزلة .

وبما أن المؤمنين كانوا حريصين على أن يدخل فى دائرة الإيمان كل عباد الله تعالى ، ولما كان علم الله تعالى الذى ليس للزمن علاقة به ، قد سبق إلى أن هذا شىء لن يتحقق ، فالآية الكريمة تجمع بين إيقاف المؤمنين على هذه الحقيقة ، وبين حثهم على العمل الجاد ، فى سبيل اتساع دائرة الإيمان ، على نحو ما يفهم من قوله تعالى عن عباد الرحمن فى سورة الفرقان : « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما »(٦) قال تعالى : « أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً » . إن تنبيه الدعاة إلى هذه الحقيقة ، يعطيهم طاقة

---

(١) تفسير القرطبى : ص ٣٥٤٨ .
(٢) البقرة : ١٦٥ .
(٣) الأنعام : ٢٧ .
(٤) البحر المحيط : ٥ - ٣٩١ .
(٥) تفسير القرطبى : ص ٣٥٤٨ .
(٦) آية : ٧٤ .

لا يمكن أن تنفد ، وطمأنينة لا يمكن أن تغيض . وهم الذين لهم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، يعلمون أنما عليهم البلاغ فقط ، ولله تعالى الأمر من قبل ومن بعد .

ويلاحظ أن الآية الكريمة تستعمل جملة « ييأس » . « أفلم ييأس الذين آمنوا » والمعنى كما ذهب إلى ذلك جمهور العلماء : أفلم يعلم الذين آمنوا ويتبينوا أنه لو يشاء الله تعالى لهدى الناس جميعاً(١). وإنا نعتقد بأن فى استعمال جملة ييأس ، التى يشتم منها شىء من اليأس ، بدلا من جملة « يعلم » مثلا ، التى تتفق معها صوتيا ، حكمة جليلة . وكأن هذه الجملة التى تفيد العلم والتبين ، كما ثبت عن بعض العرب ، تتضمن إلى جانب العلم اليأس من أن يتحول كل الناس ، وبدون استثناء ، مسلمين لله رب العالمين . وحين تجمع الجملة فى الآية الكريمة بين العلم واليأس ، فإنها تريد أن تعمق فى نفوس الدعاة إلى الله تعالى الطمأنينة التى تتجلى فى إخلاص دعوتهم إلى الله تعالى ، وتطرد عن أنفسهم الانزعاج والقلق . إن كل ما يحدث هو بعلم الله تعالى ، الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، فعلى هؤلاء الدعاة إلى الله تعالى ، أن يتحول انزعاجهم وخلقهم إلى عمل إيجابى جاد ، يعود عليهم بطمأنينة الرضى عن قيامهم بما هو مطلوب منهم ، وبما هو فى حدود طاقتهم ، ألا وهو البلاغ ، والبلاغ فقط . ولله تعالى الأمر من قبل ومن بعد .

و « قيل إنما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه ، لأن اليائس عن الشىء عالم بأنه لا يكون »(٢). وقد افاض الطبرى فى هذه المسألة(٣) وانتهى إلى القول : « والصواب من القول فى ذلك ما قاله أهل التأويل : إن تأويل ذلك ، أفلم يتبين ويعلم لإجماع أهل التأويل عن ذلك . . . فتأويل الكلام إذاً . . . . أفلم يتبين الذين آمنوا بالله ورسوله إذ طمعوا فى إجابتى من

---

(١) انظر صحيح البخارى ، ٦-٩٨ . والكشاف : ٢-١٦٧ .

(٢) الكشاف : ٢-١٦٧ . والبحر المحيط : ٥-٣٩٢ . وتفسير القرطبى : ص٣٥٤٨

(٣) ١٣ - ١٠٣ .

سأل نبيهم من تسيير الجبال عنهم ، وتقريب أرض الشام إليهم وإحياء موتاهم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً إلى الإيمان به من غير إيجاد آية ولا إحداث شيء مما سألوا إحداثه . يقول تعالى ذكره : فما معنى محبتهم ذلك مع علمهم بأن الهداية والإهلاك إلى وبيدى . أنزلت آية أو لم أنزلها . أهدى من أشاء بغير إنزال آية ، وأضل من أردت مع إنزالها »(٢) على أن من العلماء من ذهب إلى أن جملة ييأس من اليأس المعروف(٣) .

وإذا كانت السنن والنواميس لا تتغير وكان واجب الدعاة إلى الله تعالى أن يجتهدوا فى الدعوة فليس عليهم سوى البلاغ ، ولهم فى رسول الله أسوة حسنة ، فإن من سنن الله تعالى أن ينتصر عباده المؤمنون ، وأن يغلب جنده المتقون . ومن الوسائل المؤدية إلى هذه النتيجة أن يستمر البلاء فى النفوس والأهل والأموال ، من قتل وأسر وجدب وحرب ومصائب ، ملازماً لهؤلاء الكفار ، عقاباً لهم على كفرهم ، أو نازلا بالقرب منهم ، بحيث إن آثارة السيئة تلحقهم . فهؤلاء كفار مكة ، كانت سرايا الرسول صلى الله عليه وسلم وطلائعه تسد عليهم المنافذ ، وتحملهم على تغيير خط سير القوافل ، وتلحق بهم الشيء الكثير من القلق والاضطراب(٤) وقد تجلت كبرى القوارع فى معركة بدر يوم الفرقان الذى أعز الله تعالى فيه جنده وهزم قريشاً بخيلها وخيلائها ، بعددها وعدتها . كما تجلت كبرى القوارع التى حلت بالقرب منهم فى وصول المصطفى صلى الله عليه وسلم بجيشه إلى الحديبية ، فى السنة السادسة من الهجرة(٥) وهو يريد العمرة ولا يريد حرباً . وقد انزعجت قريش لوصول الجيش الإسلامى لدرجة أنها أصرت على أن يعود المسلمون ذلك العام إلى بلادهم وأن يؤدوا العمرة قضاء فى المقبل . كل ذلك مخافة أن يقال أن الرسول الكريم دخل مكة المكرمة بجيشه عنوة .

وقد تحقق وعد الله تعالى بظهور الإسلام وانتصار المسلمين فى فتح مكة ،

---

(١) هى المخففة من الثقيلة . أن عند أبى حيان البحر ٥-٣٩٣ والقرطبى ص ٣٥٥٠ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٣ - ١٠٤ .
(٣) تفسير القرطبى : ص ٣٥٤٩ .
(٤) انظر هنا تفسير القرطبى : ص ٣٥٥٠ .
(٥) انظر السيرة ؛ ٢-٣٠٨ .

الذى كان فى السنة الثامنة من الهجرة(١) حيث استسلمت قريش للرسول الكريم ولجيش الإيمان . وبذلك فتحت مكة ودخل الناس فى دين الله تعالى أفواجاً . هذا هو وعد الله تعالى وقد تحقق وعده عز وجل للرسول الكريم وللمؤمنين « إن الله لا يخلف الميعاد »(٢) . إن هذا الوعد من الله تعالى خير زائد يتزود به الدعاة إلى الله تعالى . إن نصره عز وجل لعباده المؤمنين وجنده المتقين آت لا محالة ، فعلى هؤلاء الدعاة أن يعملوا فى حقلهم بجد واجتهاد ، مضحين فى سبيل الدعوة إلى الله تعالى بكل رخيص وغال . أما متى يتحقق هذا الوعد ، فأمر ذلك لله تعالى وحده لا شريك له . هم مسئولون عن العمل وليس عن النتائج . هم مسئولون عن العمل فى ظل الظروف التى ربما تكون غير مواتية ، وعن السير فى الطريق الذى ربما لا يكون معبدا . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »(٣) . جاء فى سورة الصافات . قوله تعالى : «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين.إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون»(٤) .وجاء فى سورة النور . قوله تعالى: « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »(٥) .

وبما أن للكافرين فى كل مكان وزمان ، نوعين من السلاح ، أحدهما عسكرى أو مادى ، والآخر معنوى . وبما أن الآية الكريمة قد أولت الجانب المادى العسكرى عنايتها ، فالحاجة ماسة لمقاومة النوع الآخر من السلاح الذى كان يجيد كفار مكة استعماله ، وهو السلاح المعنوى ، الذى يهدف

---

(١) انظر السيرة : ٢-٣٨٩ .

(٢) آل عمران : ٩ .

(٣) التوبة : ١٠٥ .

(٤) الآيات : ١٧١ – ١٧٣ .

(٥) آية : ٥٥ .

إلى فت عضد المسلمين بقيادة المصطفى صلى الله عليه وسلم . وها هى ذى الآية الكريمة تولى هذا السلاح عنايتها ، بالعمل على تثبيت فؤاد المصطفى صلى الله عليه وسلم . وهذا هو الرد المعنوى الإيجابى تجاه الهجوم المعنوى العدائى من قبل المستهزئين الذين كفى الله تعالى رسوله الكريم شرورهم . قال تعالى : « **ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب** » لقد شاءت إرادة الله تعالى أن يجعل لكل رسول عدواً من المجرمين . ومن أسلحة هؤلاء المجرمين السخرية والاستهزاء ، وهو سلاح معنوى خطير . والآية الكريمة تخبر الرسول الكريم بأنه حينما يستهزىء به المستهزئون ، ليس بدعاً من الرسل ، فقد استهزىء برسل من قبله عليه الصلاة والسلام . ومع أن النصر ، فى هذا المجال الثانى من مجالات الصراع بين الإيمان والكفر ، دائماً وأبداً ، حليف الفئة المؤمنة أخيراً ، فإن هذا الإمهال منه عز وجل لهؤلاء الكافرين المستهزئين ، يراد منه إتاحة الفرصة لإيمان من شاءت إرادته تعالى أن يؤمن ، وسبق علمه عز وجل إلى ذلك(١) حتى إذا قامت الحجة على الباقين المصرين على موقفهم الخاطىء ، فإنه عز وجل يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وياله من عقاب شديد حل بأولئك الكافرين المستهزئين . وفى إمكان كفار مكة أن يقفوا على بعض مظاهر ذلك العقاب الشديد ، وأن يروا بأعينهم التى فى رءوسهم ما تبقى من آثار أولئك الذين دمر الله تعالى عليهم تدميرا . جاء فى سورة الصافات ، بشأن قوم لوط عليه السلام قوله تعالى : « **وإن لوطاً لمن المرسلين . إذ نجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزاً فى الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون** »(٢) .

هذه هى سنة الله تعالى . أن ينتقم من المستمرين فى كفرهم واستهزائهم ، انتقاماً شديداً . وأن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وقد جاء بشأن كفار مكة

---

(١) انظر تفسير القرطبى : ص ٣٥٥٢ .

(٢) الآيات : ١٣٣ – ١٣٨ .

المستهزئين فى سورة الحجر(١) . قوله تعالى : « إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون » .

والإملاء الإمهال ، وأن يترك ملاوة من الزمان فى خفض وأمن كالبهيمة يملى لها فى المرعى(٢) وجاء فى تفسير الطبرى(٣) : « والإملاء فى كلام العرب الإطالة ، يقال : أمليت لفلان إذا أطلت له فى المهل . ومنه الملاوة من الدهر . ومنه قولهم : تمليت حيناً . ولذلك قيل لليل والنهار الملوان لطولها . . . وقيل للخرق الواسع من الأرض ملا » .

كما جاء فيه « فكيف كان عقاب » استفهام معناه التعجب مما حل . وفى ضمنه وعيد معاصرى الرسول صلى الله عليه وسلم من الكفار(٤) والمعنى « ألم أذقهم أليم العذاب وأجعلهم عبرة لأولى الألباب »(٥) . « وفى الصحيحين إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه اليم شديد »(٦). « عن عكرمة فى قوله : ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم » قال : نزلت بالمدينة فى سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم »(٧) .

---

(١) آية : ٩٥ ، ٩٦ .
(٢) الكشاف ٢-١٦٧ . والملاوة بفتح الميم وضمها وكسرها . القاموس .
(٣) ٢٣-١٠٦ .
(٤) البحر المحيط : ٥-٣٩٣ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٣-١٠٦ .
(٦) تفسير ابن كثير : ٢-٥١٦ .
(٧) تفسير الطبرى : ١٣-١٠٥ .

القسم التاسع

قال تعالى : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت . وجعلوا لله شركاء قل سموهم . أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول ، بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد . لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق . مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها . تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار » .

فمع الآية الكريمة الأولى ، قال تعالى « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت . وجعلوا لله شركاء قل سموهم . أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول . بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فماله من هاد » . ونحن نود أن نقف عند كل جزئية فى الآية الكريمة على حدة . فمع الجزئية الأولى « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت» والحديث هنا على الحذف ، فى مجال الاستفهام الإنكارى على كفار مكة الذين أشركوا مع الله تعالى غيره . والاستفهام هنا يوبخ هؤلاء الكافرين بطريقة تثبت للذات العلية بعض ما توصف به . وفى المقابل هى تنفى عن الشركاء العاجزين كل شىء . أما الذى تثبت الجزئية الكريمة للذات العلية المستحقة لأن تعبد وحدها لا شريك لها ، فهو القيام على كل نفس بما كسبت ، حيث لا يغيب عنه عز وجل ، الخالق البارئ المصور ، شىء مما يقوم به أى انسان ، سراً وجهراً . بل مما يجول فى خاطره وتوسوس به نفسه ، وقد قال عز من قائل(١) «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » قال قتادة : « ذلكم ربكم تبارك وتعالى ، قائم على بنى آدم بأرزاقهم وآجالهم وحفظ

---

(١) ق : ١٦ .

عليهم والله أعمالهم »(١) . أليس من الحمق أن يتحول كفار مكة ومن شاكلهم عن عبادة الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد ، المحيط بكل ما تقوم به النفس الإنسانية وما تدع ، إلى عبادة الآلهة المزعومة « لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون . ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا »(٢) .

والقائم هو الرقيب . والمعنى ، أفمن هو رقيب على كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، أحق بأن يعبد ، أم من ليس كذلك « ومن موصولة ، صلتها ما بعدها . وهى مبتدأ ، والخبر محذوف تقديره كمن ليس كذلك من شركائهم ، التى لا تضر ولا تنفع ، كما حذف من قوله : أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه(٣) ، تقديره كالقاسى قلبه الذى هو فى ظلمة ودل عليه قوله تعالى : وجعلوا لله شركاء ، كما دل على القاسى : فويل للقاسية قلوبهم »(٤) .

وإن هؤلاء الشركاء ، قد يبلغ الانحطاط العقلى بعابدهم أن يصنعهم بيديه من خشب أو حجر أو عجوة وما إلى ذلك . فإن اضطر وقتاً من الأوقات لأن يجعل معبوده طعاماً للنار أو ثالثة الأثافى أو طعاماً له هو ، فإنه لا يتردد عن كل ذلك وقتاً من الأوقات . لقد بلغ الحمق بالمشركين هذا المبلغ ، والآية الكريمة تلفت الانتباه إلى هذا الخطأ المبين ، فى طريقة كريمة ، تنبه النفس الإنسانية إلى المهمة الجليلة التى نيطت بها ، والغاية الحميدة التى خلقت من أجلها . وخير دليل على هذه الطريقة الكريمة ، اكتفاء الجزئية الكريمة بأقل الكلام وأدله . إن الحديث هنا عن الذات العلية ، بذكر صفة من صفاتها ، وإن الجزء الباقى المحذوف من الكلام ، معروف فى ضوء ما تعرف به هذه السورة الكريمة من صفة بارزة فيها ، تتجلى فى جمعها بين

---

(١) تفسير الطبرى : ١٣-١٠٧ .
(٢) الفرقان : ٣ .
(٣) الزمر : ٢٢ .
(٤) البحر المحيط : ٥-٣٩٤ .

الصفات المتقابلة والقضايا المختلفة . إن صفة القيام هى التى أثبتها السياق للذات العلية ، والمقابلة تقتضى أن الصفة المقابلة هى العجز الكامل بحق الشركاء . وبما أن المراد تقرير الحقيقة القائمة من كون القائم على كل شىء هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، فمعنى هذا أن الشركاء ينبغى ألا يركن إليهم فى شىء ، ولهذا كان تقدير الكلام : أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت مستحق للعبادة . أمن هو عاجز عن كل شىء عجزاً تاماً ؟ . والجواب بطبيعة الحال معروف . وقد أشارت الجزئية التالية صراحة إلى تلك الآلهة المزعومة ، العاجزة عن دفع الضر عن أنفسها فضلا عما وراء ذلك . قال تعالى : **« وجعلوا لله شركاء قل سموهم »** .

وعلى الرغم من تنبيه هؤلاء المشركين إلى طبيعة هذه الآلهة المزعومة ، هم يجعلونها آلهة مع الله تعالى . والآية الكريمة تطلب منهم أن يسموا هذه الآلهة ، كى يتبينوا بشأن كل على حدة ، أنه عاجز عن أن يقوم على نفس واحدة . وكيف يقوم على نفس واحدة خارج ذاته ، من هو عاجز عن أن يرعى مصالحه هو نفسه . «وأم» فى قوله : أم تنبئونه ، منقطعة . وهو استفهام توبيخ »(١) أى أتنبئون الله بشركة الأصنام التى لا تتصف بعلم البتة »(٢) .

على أن سورة يوسف تنبه أمثال هؤلاء إلى أن هذه الأسماء ليست سوى أسماء هم سموها من عند أنفسهم دون أن يكون لها مسميات تدل عليها . قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام مخاطبا الفتيين فى السجن(٣) : **« ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »** . أم أن هؤلاء المشركين بعبادتهم غير الله تعالى ، يريدون أن ينبهوه عز وجل — تعالى الله عز وجل علواً كبيرا — بما لا يعلم فى الأرض . إنه عز وجل لا يخفى عليه خافية فى السماء ولا فى

---

(١) البحر المحيط : ٥-٣٩٤ . وانظر تفسير القرطبى : ص ٣٥٥١ .

(٢) البحر المحيط : ٥-٣٩٥ .

(٣) يوسف : ٤٠ .

الأرض . فينبغى أن يقلع هؤلاء المشركون عن عبادة غير الله تعالى . ويلاحظ أن فى الجزئية الكريمة التفاتاً من الغياب إلى الخطاب « أم تنبئونه » كما يلاحظ أن الجزئية تكتفى بذكر الأرض ، لأنها تعنى فى المقام الأول معبودات كفار مكة فى الأرض « وإنما خص الأرض بنفى الشريك عنها ، وإن لم يكن له شريك فى غير الأرض ، لأنهم ادعوا له شركاء فى الأرض »(١) بينما جمعت آية سورة يونس بين السماوات والأرض ، لأنها تعنى عموم ما يعبد من دون الله تعالى . قال عز من قائل(٢) « **ويعبدون من دون الله ما لايضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل أتنبئون الله بما لايعلم فى السماوات ولا فى الأرض . سبحانه وتعالى عما يشركون** » فإذا تحولنا إلى الجزئية التالية : « أم بظاهر من القول » تبينا أن « أم » يمكن أن تفيد معنى « بل » . بمعنى أن ما يتفوه به كفار مكة باطل(٣)من القول ، لا معنى تحته ولا فائدة وراءه ، إنما هو الخسران كل الخسران . وقد كانت أم التى يفهم منها معنى « بل » الذى يفيد الإضراب ، مهيئة لمجىء « بل » فى صدر الجزئية التالية « **بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل** » . فقد زين الشيطان الرجيم للكافرين « كيدهم للإسلام بشركهم »(٤) . « قال مجاهد : قولهم ، أى ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار ، كقوله تعالى(٥): « **وقيضنا لهم قرناء ، فزينوا لهم** »الآية .(٦)وهؤلاء الكافرون يستطيعون فى هذه الحياة التى جعلوها غاية لهم ، أن ينالوا ما شاءوا من نعيمها الزائل ، دون حدود ولا قيود . وبذلك صدوا عن سبيل الهدى ، الذى يشترط مخالفة النفس الأمارة بالسوء والانتفاع من نعمة العقل التى امتن الله تعالى بها على الإنسان .

---

(١) تفسير القرطبى : ص ٣٥٥٢ .

(٢) يونس : ١٨ .

(٣) انظر البحر المحيط : ٥-٣٩٥ . وتفسير القرطبى ، ص ٣٥٥١ وتفسير ابن كثير ، ٢-٥١٦ وتفسير الطبرى : ١٣ - ١٠٨ .

(٤) الكشاف : ٢-١٦٨ .

(٥) فصلت : ٢٥ .

(٦) تفسير ابن كثير : ٢-٥١٦ .

وختمت الآية الكريمة بالقول : « ومن يضلل الله فما له من هاد » بالإشارة إلى الصفتين المتقابلتين ، الضلال والهداية ، وبالتنبيه إلى أن ما ارتضاه المشركون من عبادة الآلهة المزعومة ، رغم إرسال الرسول الكريم ، وإنزال القرآن الحكيم ، إنما تم بعلم الله تعالى الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وبإرادته ، وهو القادر على كل شيء . حينما اختار الكافرون بمحض إرادتهم طريق الضلال ، زادهم الله تعالى ضلالا إلى ضلالهم الذى سبق فى علمه عز وجل أنهم سيختارونه مستقبلا « ومن يضلل الله فماله من هاد » .

إن لهؤلاء المشركين عذاباً فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . وإن العذاب فى الحياة الدنيا من الجائز أن يتحقق على أيدى المؤمنين ، على نحو ما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة فى هذه السورة « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتى وعد الله ، إن الله لا يخلف الميعاد »(١) . والآية الكريمة من قبل « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال »(٢) . قال تعالى : « لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من دونه من واق » . لقد نكرت الآية الكريمة لفظة « عذاب » دليلا على عظم عذاب الدنيا وتنوعه . ولا يلحقهم إلا عقوبة لهم على الكفر ، ولذلك سماه عذاباً(٣) أما عذاب الآخرة فإنه أشد وأشق . « وأشق ، أشد ، من المشقة »(٤) وكان عذاب الآخرة أشق على النفوس ، لأنه إحراق بالنار دائماً ، كلما نضجت جلودهم بدلنا هم جلوداً غيرها »(٥) وليس لهؤلاء المشركين ، من عذاب الله تعالى فى الدنيا والآخرة واق ، من جهة الآلهة المزيفة أو سواها وإن

---

(١) آية : ٣١ .
(٢) آية : ١١ .
(٣) الكشاف : ٢-١٦٨ . وانظر البحر المحيط : ٥-٣٩٥ .
(٤) صحيح البخارى : ٦-٩٨ . وانظر تفسير الطبرى : ١٣-١٠٨ .
(٥) البحر المحيط : ٥-٣٩٤ .

حرف الجر من فى قوله « من واق » يفيد التبعيض . وإن نفى البعض أبلغ من نفى الكل وهذا مفهوم . ولعلنا تبينا أن الآية الكريمة قد جمعت بين الدنيا والآخرة . فطابعها هو الطابع العام للسورة الكريمة فى جمعها بين الصفات المتقابلة . قال تعالى : « **لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق** » . أى ما لهم من حافظ من عذابه(١) .

وإذا كان هذا هو عقاب المشركين الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، فما هو ثواب المؤمنين الذين أفردوه عز وجل بالعبادة ، وفعلوا ما أمروا به وانتهوا عما نهوا عنه ؟ . الجواب فى الآية الكريمة التالية ، التى تتحدث عن الجنة التى وعد المتقون ، والتى هى عقباهم ، كما تشير الآية إلى النار عقبى الكافرين . قال تعالى : « **مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها . تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار** » ويلاحظ أن الآية الكريمة تبدأ مباشرة بوصف الجنة التى وعد المتقون. وقد جانس هـذا الوصف الذى قدم أن يشار فى نهاية الآية إلى الجنة التى صفتها هى عقبى الذين اتقوا . وكأن محور الآية الكريمة ما يئول إليه حال المتقين فى الجنة . وعلى عادة السورة الكريمة فى الجمع بين الأمور المتقابلة ، هى تتحدث عن النار ، عقبى الكافرين ، إثر الحديث عن الجنة ، عقبى المتقين .

وبما أن فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فإن الحديث فى وصفها يبدأ بذكر لفظة المثل . وكأن صفة هذه الجنة على درجة من الغرابة ومخالفة المألوف ، للدرجة التى يضرب لتقريبها المثل ويصح أن يشار إلى ذلك باستعمال لفظة المثل « مثل الجنة التى وعد المتقون »

وما بعض مقومات هذه الصفات التى بلغت حداً صح معه أن تنزل منزلة المثل ؟ الجواب فى قوله تعالى فى الآية الكريمة : « **تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها** » إنها صفات ثلاث ثوابت فى حق الجنة ، من

---

(١) الكشاف : ٢ - ١٦٨ .

زاوية ما يمكن أن يسمى فى عرفنا مكاناً وزماناً ، بينما هى فى حق جنات الدنيا متغيرة ، متقلبة . أما ما هو من مستلزمات المكان ، فالمـــاء والثمار ، وما فى حكم الثمار من طعام . وأما ما هو من مستلزمات الزمان فالظل . ولو أننا تأملنا جنة من جنان الدنيا ، فإن أول ما يشترط لوجودها المـــاء . فما الذى يلاحظ على أعظم أنواع المياه العذاب فى الدنيا ، أعنى الأنهار مثلا ؟ الذى يلاحظ عليها أنها عرضة لأن تغيض أو تفيض . وفى ذلك هلاك الحرث والنسل . أما أنهار الجنة فإنها تجرى دائماً وأبداً ، ولا يأتى من جهتها إلا الخير المطلق . إنها ليست كأنهار الدنيا التى لا يؤمن ضررها وأحياناً خطرها من جهة النقص أو الزيادة . ويضاف إلى ذلك أن هذه الأنهار متعددة الأنواع . وقد أشارت إلى ذلك هذه الآية الكريمة من سورة محمد : **« مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى . ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم »(١) .**

إن لفظة أنهـــار ، تقذف إلى الذهن بالمـــاء تواً ، لذا تقدم الآية الكريمة القول : « فيها أنهار من ماء غير آسن » وإنما نفى عن المـــاء صفة التغير فى اللون أو الطعم أو الرائحة ، لأن ذلك التغير ، فى البيئة الحارة بصفة خاصة ، من أهم سمات ماء الدنيا ، القابل لأن يأسن سريعا . إن اعتماد القوم على اللبن ، يلى اعتمادهم على المـــاء ، لذلك جاءت الإشارة بعد ذلك إلى أنهار اللبن « وأنهار من لبن لم يتغير طعمه » وإنما نفى عن اللبن تغير الطعم ، لأنه فى البيئة الحارة سريع تغير الطعم . وبما أن العرب آنذاك حديثو عهد بجاهلية ، وكان حب الخمرة قد تغلغل فى أعماق المجتمع العربى ، على الرغم من عيوب خمر الدنيا المتصلة بالطعم مثلا وبالآثار السيئة على شاربها سلوكياً وصحياً وعلى المجتمع ، فإن الآية الكريمة تنعت خمر الآخرة بنفى أول الآثار غير الحسنة للخمرة ، وهى التى تتصل بالطعم « وأنهار من

---

(١) آية : ١٥٢ .

خمر لذة للشاربين » وإن العرب يحبون العسل الذى من أهم متعلقاته المنغصة ، الشمع الذى يختلط به ، هذا إلى صعوبة الحصول عليه فى العادة ، وصعوبة الحصول على كميات كبيرة منه ، والآية الكريمة تنفى عن هذا العسل أبسط تلك المنغصات « وأنهار من عسل مصفى » وحينما تنفى أبسط المنغصات عن أنهار المـــاء واللبن والخمرة والعسل فذلك نفى طبيعى لكل ما وراءها من منغصات . وإذا كان يسهل تصور العرب لأنهار المـــاء غير الآسن ، فإن هذه السهولة تقل ، وبالتالى يزداد عجبه باضطراد ، بشأن الأنهار التالية . وإذا كان حظ العربى فى جزيرته من الأنهار ضعيفاً . فالمعروف أيضاً أن حظه قبل الإسلام من هذه الأنواع الثلاثة ، اللبن ، والخمرة ، والعسل . يأخذ فى الاتجاه نزولا فى الكمية باضطراد . إن حظهم من اللبن ، وهم الرعاة فى مجموعهم ، يأتى فى المقام الأول . يلى ذلك حظهم من الخمرة التى كانوا مدمنين عليها فى جملتهم ، هذا إلى أن كميتها قابلة لأن تزداد لأنها شىء يصنعونه . يلى ذلك حظهم من العسل الذى كان آنذاك طبيعياً فقط فيما يبدو . وكأن هذا التدرج المنطقى فى عرض هذه الأشياء ، يساير الغرابة المتدرجة هى الأخرى ، فيلطف من وقعها فى نفوس المخاطبين . « تجرى من تحتها الأنهار » أى سارحة فى أرجائها وجوانبها وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيرا . أى يصرفونها كيف شاء وا وأين شاءوا »(١) .

فإذا تحولنا إلى الطعام فى تلك الجنة ، وتناولنا أهم متعلقاته المباشرة ، أعنى الثمـار ، فإن السياق يثبت له صفة الدوام ، وهى أول صفة تفتقدها جنات الدنيا ، وحينما تكون الثمـار دائمة ، فذلك دليل على دوام الطعام ، الذى يسهل ذلك فى حقه . إن النفس الإنسانية تنبه إلى أن أكل الجنة دائم ، وهذا التنبيه يعتبر مفاجئاً لهـا إلى حد كبير ، وليست هذه المفاجأة إلا قليلا من كثير ، والذى يلطف من هذه المفاجأة أنها قد سبقتها مجموعة من المفاجئات وقد مهد لهـا بكون أنهار الجنة ترتبط بها أبسط هذه المفاجآت فى الآية الكريمة ، من كون الأنهار تجرى دائمـاً ، هذا إلى أن ضررها معدوم بتاتاً .

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢-٥١٧ .

ولو فرض أننا كنا فى جنة من جنات الجزيرة العربية المعروفة بحرها اللافح ، وقد اجتمع فى هذه الجنة بطبيعة الحال أهم عناصرها ، الخضرة والمـــاء والمنظر الحسن ، فما الذى يفتقده العرب فى تلك الجنة ، مما يعتبر تحققه كمال الحسن الذى ليس وراءه كمال ؟ إنه الغيم الذى يحجب حرارة الشمس التى شبعت منها نفسية العربى ، وأصبح فى أمس الحاجة إلى النسيم البارد العليل ، والمـــاء العذب البارد السلسبيل ، مما انعكس فى لغته فعبر عن الرضا والسعادة مثلا بالقول : قرة العين وبرد الفؤاد ، لحاجة عينه إلى القر (بالضم) أى البرد ، وقد آذتها الحرارة . وحاجة جوفه إلى المـــاء البارد ، وقد اعتاد أن يمتلىء بالمـــاء الذى هو أقرب إلى السخونة منه إلى أى شىء آخر .

إن الآية الكريمة ، تشير بشأن جنة الآخرة إلى أهم صفة وأبسط صفة يفتقدها العربى الذى نزل القرآن الكريم بلسانه ، بشأن جنان الدنيا ، وهى الظل الممدود ، حيث لا تكون الشمس غائبة ، إما لكونها تستتر وراء السحب ، أولكونها لا زالت بعيد الفجر وراء الحجب . قال تعالى : « أكلها دائم وظلها » والمراد ، وظلها دائم . فى الكلام بلاغة بالحذف ، لدلالة اللفظة ذاتها ، المذكورة مع الأكل . إن العربى يجد اللذة كل اللذة فى وقت قصير يقضيه فى إحدى الجنان . وإن الآية الكريمة ، تنبه هذا العربى الذى شرف باختياره أول حامل للواء هذه الدعوة ، إلى أن ظل الجنة دائم . يالله من نعيم مقيم ، ينبغى أن يبذل فى سبيل الحصول عليه ، كل رخيص وغال . « وقال إبراهيم التيمى : أى لذاته دائمة ، لا تزاد بجوع ولا تمل من شبع . وظلها ، أى دائم البقاء والراحة . لا تنسخه شمس ولا يميل لبرد كما فى الدنيا »(١) .

وقد عبر عن الجنة بأنها عقبى الذين اتقوا . وبالنار بأنها عقبى الكافرين . « تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار » . وإن لفظة عقبى هنا بمعنى العاقبة . تعتبر قوة لرأى الجمهور الذى رجحناه والذى يذهب إلى أن لفظة

---

(١) البحر المحيط : ٥-٣٩٦ .

الدار فى قوله تعالى : « سوء الدار » فى الآيتين الثانية والعشرين والرابعة والعشرين . وفى قوله تعالى : « سوء الدار » فى الآية الخامسة والعشرين ، إنما يراد بها الدار الدنيا . إن عقبى الذين اتقوا فى الدنيا ، الجنة . وإن عقبى الكافرين النار . إن الدنيا بشأن المؤمن والكافر هى دار العمل . وإن الآخرة هى دار الثواب والعقاب . قال تعالى : « مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها . تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النـــار » .

القسم العاشر

قال تعالى : « والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه ، قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب . وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق . ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ، لكل أجل كتاب . يمحو الله ما يشاء ويثبت . وعنده أم الكتاب . وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب . أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ، والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب . وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعاً ، يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار . ويقول الذين كفروا لست مرسلا ، قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب » .

فمع الآية الكريمة الأولى . قال تعالى : « والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك . ومن الأحزاب من ينكر بعضه . قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به . إليه أدعو وإليه مآب » .

لو نظرنا إلى لفظة كتاب فى هذه السورة الكريمة ، لاستطعنا أن نتبين أنها تدل على كل من القرآن الكريم ، قال تعالى : « الر ، تلك آيات الكتاب » وعلى الكتب السماوية السابقة وذلك فى الآية الكريمة هذه . فالذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى . والمستمسكون منهم بالكتابين السماويين ، التوراة والانجيل ، العاملون بمقتضاهما حينما يقفون على ما أنزل إلى الرسول الكريم من آيات الذكر الحكيم . يفرحون بما أنزل على الرسول محمد صلى

الله عليه وسلم يزيدهم يقيناً إلى يقينهم ، واطمئناناً إلى اطمئنانهم . والشيء الذى يلفت الانتباه هو أن الآية الكريمة تستعمل الفرح دليلا على السعادة والانشراح ، اللذين ظفر بهما أهل الكتاب . إن هؤلاء الذين يتمكن منهم الفرح ، هم رجال الدين اليهودى والمسيحى ، الذين لهم القدم الراسخة فى علومهم الدينية . وإن الذى يجعل رجال الدين أولئك ، فرحين بما جاء موافقاً للأجزاء التى لم ينلها التحريف من الكتابين السماويين ، التوراة والإنجيل ، ينبغى أن يكون شيئاً لا كالأشياء ، خاصة إذا عرفنا أن شيئاً من تعاليم الديانتين ، يعتبره علماؤهم سراً خاصاً بهم ، وهنا ينزل القرآن الكريم ، كلام رب العالمين موافقا لمـا جاء مبشراً بالرسول الكريم وبالكتاب العظيم . جاء فى سورة البقرة قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون »(١) وجاء فى سورة الإسراء . قوله تعالى : « قل آمنوا به أو لا تؤمنوا . إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا »(٢). وجاء فى سورة القصص . قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه . وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين »(٣)وجاء فى سورة آل عمران . قوله تعالى : « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا . أولئك لهم أجرهم عند ربهم . إن الله سريع الحساب »(٤) .

---

(١) آية : ١٢١ .
(٢) الآيات : ١٠٧ - ١٠٩ .
(٣) الآيات : ٥٢ - ٥٥ .
(٤) آية : ١٩٩ .

وفى مقابل هؤلاء المحبين للحق ، فئة أخرى من اليهود والنصارى والمشركين ، تحزبت ضد هذا الدين فأنكرت من القرآن الكريم ما لا يوافق هواها . فكفار مكة على سبيل المثال ، يكفرون بالرحمن ، على نحو ما مر بنا من قبل بشأن الآية الثلاثين . قال تعالى : « **كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن . قل هو ربى لا إله إلا هو ، عليه توكلت وإليه متاب** » .

وأهل الكتاب « كانوا لاينكرون الأقاصيص وبعض الأحكام والمعانى ، مما هو ثابت فى كتبهم غير محرف ، وكانوا ينكرون ما هو نعت الإسلام ونعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك مما حرفوه وبدلوه من الشرائع »(١) .

إن كل رسل الله تعالى إنما بعثوا برسالة واحدة ، هى الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، والآية الكريمة تطلب من الرسول الكريم أن يعلن على الجميع الهدف الذى أرسل من أجله وأنه عامل من أجل ذلك الهدف متوكل على الله تعالى . قال عز من قائل : « **قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب** » . إن هذا الرسول الكريم ، الذى يدعو جاهداً إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وإلى شرعه ودينه ، يعلن بأن مرجعه إلى الله تعالى فى كل أموره ، فى الدنيا وفى الآخرة يوم البعث .

ولعلنا لاحظنا أن الآية الكريمة ، فى حديثها عن الموقفين المختلفين لأهل الكتاب من القرآن الكريم ، وفى حديثها عن الدعوة إلى هذا الدين فى الدنيا والعودة إلى الله تعالى يوم القيامة ، إنما تطبع بالطابع الغالب على آيات هذه السورة الكريمة ، فى الجمع بين الصفات المتقابلة .

فإذا تحولنا إلى الآية الكريمة التالية « **وكذلك أنزلناه حكماً عربياً . ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق** » .

---

(١) الكشاف : ٢-١٦٨ .

ربما استطعنا أن نستفيد من هذه الطابع العام لآيات السورة الكريمة فى ترجيح معنى بعينه على معنى آخر من الجائز أن تعنيه الآية الكريمة .

وأول ما نود الوقوف عنده القول « وكذلك » الذى يقذف إلى أذهاننا بالصيغة المماثلة فى هذه السورة الكريمة ، بمناسبة الحديث عن إرسال الرسول الكريم فى الآية الثلاثين « **كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم** » الآية . فإذا كان المعنى هنالك : ومثل ذلك الإرسال المتعلق بالرسل السابقين ، نحن أرسلناك أيها الرسول الكريم ، فإن المعنى يسير فى الوجهة ذاتها . ومثل ذلك الإنزال للكتب السماوية السابقة على الرسل السابقين ، نحن أنزلنا هذا القرآن الكريم حكماً عربياً . فما معنى « **حكماً عربياً** » ؟ إنه لا مانع من حيث المبدأ أن تكون لفظة حكم ، ذات علاقة بالحكمة والإحكام ، أو أن تكون بمعنى الحكم بالقرآن الكريم الذى أنزل الله تعالى . ولكن يبدو أننا فى سبيل ترجيح أحد المعنيين ، من الجائز أن نلجأ إلى الطابع الغالب على آيات السورة ، فى الجمع بين الصفات المتقابلة ، علنا نتبين شيئاً يسعفنا على ترجيح أحد الرأيين . وأول ما يصادفنا هو لفظة الأهواء فى الآية الكريمة فى معرض تحذيره صلى الله عليه وسلم من اتباع هوى الكافرين الذين اتخذوا آلهتهم أهواءهم . قال تعالى : « **ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق** » . فما الذى يقابل الهوى والعاطفة ؟ العقل والفكر . فهل فى الإمكان أن ننظر مرة أخرى إلى هذه الجزئية السابقة « **وكذلك أنزلناه حكماً عربياً** » من زاوية ما يقابل الهوى ؟ إن الذى يقابل الهوى ، مما له علاقة بالأصل اللغوى « حكم » هو الحكمة ، التى من سماتها إحكام صياغة معناها ، كى تملك العقول وتأسر القلوب . وبما أن من سمات القرآن الكريم الذى يسره رب العزة للذكر الإحكام ، بمعنى أن يبين بعضه بعضا ، ويصدق بعضه بعضا ، فالذى يلوح ، والله تعالى أعلم ، أن المراد بلفظة « حكماً » قرآناً محكماً مبيناً ينبغى أن يتمشى الناس كلهم بمقتضى تعاليمه . ومما يؤيد هذا الرأى ، هو أن لفظة « حكماً » وصفت بالقول « عربياً » فقد شاءت حكمة الله تعالى ، التى أرسلت الرسل بألسنة أقوامهم ، وأنزلت الكتب

السماوية بتلك الألسنة ، أن يكون القرآن الكريم الحكمة ، بلسان عربى مبين ، كى يتم فهم هذه الحكمة على وجهها . ولا يخفى أن وصف الحكم ، أى الحكمة ، بأنه عربى ، هو الذى يتمشى مع الشمول الذى تفيده لفظة عربى ، والرغبة فى الوضوح والبيان ، كى تفهم هذه الحكمة كاملة وتوتى أكلها . إننا لو ذهبنا إلى أن لفظة الحكم هنا تعنى التقاضى والحكم بما أنزل الله ، لتبينا أن آيات الأحكام ، بما أنها ليست كل القرآن الكريم ، وأن صفة العروبة ، هى سمة القرآن الكريم الذى أريد له أن يكون مفهوماً كله ، فمعنى هذا أن تطلق صفة العروبة ، هنا على ما يتصل بالأحكام فقط ، والأولى أن تكون مرتبطة بصفة تشمل القرآن الكريم كله ، وهى صفة البيان ، الذى من أهم سماته من أجل ذلك ، أن نزل بلسان عربى مبين .

ولا ينبغى أن يسبق إلى الفهم أن الحكم ، بمعنى التحاكم إلى القرآن الكريم ، لا يصح أن نفهم من هذه الجزئية « **وكذلك أنزلناه حكماً عربياً** » إنه يصح أن يفهم ، لا ، بل ينبغى أن يفهم ولكن بدلالة الالتزام . لأن القرآن الحكمة قادر على أن يقنع كل عقل ويشبع كل نفس . فيجب تطبيق كل تعاليمه ، بما فى ذلك تطبيق أحكامه التى تشكل جزءا من أجزاء هذا القرآن الكريم ، الذى يجب تطبيق كل تعاليمه بدون أى استثناء .

وفى ضوء المعنى الذى ذهبنا إليه من كون الحكم بمعنى الحكمة ، نستطيع أن نقول مع أبى حيان فى البحر المحيط(١) : « وأراد بالحكم أن يفصل بين الحق والباطل ويحكم . . . . . والحكم ما تضمنه القرآن من المعانى » والقرطبى(٢) : « وقيل : أراد بالحكم العربى القرآن كله ، لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم » وابن كثير(٣) « كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً شرفناك به ، وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلى ، الذى : لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

---

(١) ٥-٣٩٧ .

(٢) تفسير القرطبى : ص ٣٥٥٦ .

(٣) تفسير ابن كثير : ٢-٥١٨ .

إن القرآن الكريم واضح بين ، وهذا يعني أن العلم الذى جاء به معروف على أحسن الوجوه . فهل يليق بالمسلمين أن يتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ؟ لا يليق بهم ذلك بطبيعة الحال . وإمعاناً من الآية الكريمة فى تخويف المسلمين ، هى توجه الخطاب إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم المعصوم . وإذا كانت الآية الكريمة فى مظهر تهديده صلى الله عليه وسلم تبين بأنه إن فعل شيئاً من ذلك ، فليس له من الله تعالى من ولى يتولى أموره ويرعى مصالحه ، ولا واق يمنع عنه عذاب الله عز وجل . فما الذى ينتظر أتباعه صلى الله عليه وسلم من التهديد والوعيد ، والعذاب الشديد ، إن هم فعلوا ما نهى الله تعالى عن فعله رسوله الكريم فى لهجة تميل إلى شىء من شدة ؟ لا شك أن الذى ينتظرهم شىء كثير . هدانا الله تعالى جميعاً إلى سواء السبيل .

فإذا تحولنا إلى الآية الكريمة التالية : « **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية . وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ، لكل أجل كتاب** » تبينا أنها فى جوهرها ترد على مجموعة من اعتراضات الكافرين ، من كون الرسول الكريم واحداً من البشر ، بل من فقرائهم . وليس واحداً من الملائكة أو حتى من عظماء القريتين ، مكة والطائف . ومنها اعتراضهم على كون الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ويتزوج وينجب . ومنها كون آية الرسول الكبرى هى القرآن العظيم ، وهى معجزة عقلية بيانية ، وهم يطلبون آيات أخرى حسية مادية . إن الآية الكريمة تشير فى ردها على هذه الاعتراضات ، إلى أن حال الرسول الكريم ، يشبه حال المرسلين السابقين من كونه عز وجل قد اصطفاهم دون أن يكون لهم شىء من علم سابق بهذا الاصطفاء ، فضلا عن عمل من أجله . فهذا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، يقول عنه رب العزة فى سورة الشورى : « **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا . وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور** »(١) .

(١) آية : ٥٢ ، ٥٣ .

ثم إن رسل الله تعالى يعيشون كغيرهم من البشر .« يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا . وإنما التخصيص فى الوحى » . « وهذه الآية تدل على الترغيب فى النكاح والحض عليه ، وتنهى عن التبتل وهو ترك النكاح . وهذه سنة المرسلين كما نصت عليه هذه الآية . والسنة واردة بمعناها . قال صلى الله عليه وسلم . تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم »(١). وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أما أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى . . . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع من سنن المرسلين ، التعطر والنكاح ، والسواك والحناء(٢) .

إن اصطفاء الله تعالى رسله أكبر نعمة يختص الله تعالى بها من شاء من عباده . وإن معجزات هؤلاء الرسل ، لا دخل لهم فى تحققها ولا فى نوعها . إنهم لا يأتون بشىء من عند أنفسهم ، إنما كل شىء منه عز وجل . هكذا شاءت إرادة الله تعالى لمعجزات هؤلاء الرسل ، ولكل شىء فى هذا الوجود ، أن يقوم فى الوقت المناسب بالعمل المناسب . إن كل شىء فى هذا الوجود بمقدار . وأن كل أجل أو مدة ، لكل شىء فى هذا الوجود مهما صغر أو كبر ، هو مقدر ، مضبوط ، فى كتاب ، فلا يستطيع إلا أن يكون ، وفى الوقت الذى شاء العليم الخبير له أن يتحقق فيه . وهكذا يتبين أن هذا العالم الفسيح الذى لا يعلم مدى اتساعه إلا خالقه ومدبره والمهيمن عليه ، تخضع كل ذرة من ذراته لإرادة الحكيم الخبير ، كى تقوم فى الوقت المحدد ، بما خلقت من أجله من عمل محدد « وقوله : لكل أجل كتاب ، لفظ عام فى الأشياء التى لها آجال ، لأنه ليس منها شىء ، إلا وله أجل فى بدئه وفى خاتمته . وذلك الأجل مكتوب محصور »(٣) .

وهو عز وجل وحده لا شريك له ، الذى يمحو ما يشاء ويثبت وعنده

---

(١) تفسير القرطبى : ص ٣٥٥٦ .
(٢) تفسير ابن كثير : ٢-٥١٨ ، ٥١٩ .
(٣) البحر المحيط : ٥-٣٩٧ .

أصل كل كتاب . قال تعالى : « **يمحو الله ما يشاء ويثبت . وعنده أم الكتاب** » وإن أول ما نود التنويه به هنا هو أن هذا القسم من السورة ذو علاقة واضحة بالكتابة . وبما أن الآية السابقة قد ختمت بلفظة الكتابة « لكل أجل كتاب » فطبيعي أن يكون التعبير بعد ذلك ذا علاقة بطبيعة الكتابة ، حيث قد جمعت الآية الكريمة بين صفتين متقابلتين من صفات ما يكتب ، المحو والإثبات . وبما أن هذا القسم من السورة يتحدث عن قضايا متعددة من أهمها آيات رسل الله تعالى المختلفة التي لا دخل للرسل في تحققها ولا في نوعها ، إنما يتم ذلك ، كما يتم كل شيء في هذا الوجود ، بإرادة الله تعالى ، في وقت بذاته لغاية بذاتها « لكل أجل كتاب » ففي ضوء هذا العموم ، من ناحية ، ناحية عموم القضايا . وفي ضوء هذا الخصوص ، خصوص الكتاب بالعناية الأكبر في هذا القسم ، يمكن أن ننظر إلى الآية الكريمة ، « **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** » بأن الحديث هنا ، وإن كان أساساً متعلقاً بجنس الكتاب ، فهو شامل لكل ما يصح أن يعبر عنه بالمحو والإثبات . فعلى سبيل المثال ، لو أننا استعرضنا ما يمكن استعراضه من الشرائع والاحكام ، ففي إمكاننا أن نفهم المحو كما يقول أبو حيان(١) بأنه « عبارة عن النسخ من الشرائع والأحكام . والاثبات عبارة عن دوامها وتقررها وبقائها » . فعلى سبيل المثال ، إذا كان حد السارق في الشريعة الإبراهيمية ، كما نهت إليه سورة يوسف ، هو أن يسترق لمدة عام واحد ، على نحو ما حدد بعضهم فترة الاسترقاق(٢) ، فإن حد السارق في الإسلام أن تقطع يده . قال تعالى في سورة المائدة : « **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم** »(٣) بينما لو أننا تحولنا إلى آيات الحكمة مثلا من سورة الإسراء ، لتبينا أنها ، كما يقول العلماء ، قد تضمنت من المبادىء ما هو غير قابل للنسخ في سائر الشرائع(٤) . وقد قال عز من قائل : « **لكل جعلنا**

---

(١) البحر المحيط : ٥-٣٩٧ .

(٢) أشرنا إلى ذلك في كتابنا الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام ص ٢٣٦ .

(٣) آية : ٣٨ .

(٤) أشرنا إلى هذه الحقيقة في أثناء دراستنا لآيات الحكمة في كتابنا « تأملات في سورة الإسراء » ص ٩٩ فما بعدها .

منكم شرعة ومنهاجا »(١) وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا السعادة والشقاوة والموت(٢) . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال وهو يطوف بالبيت ويبكى : اللهم إن كنت كتبت على شقوة أو ذنباً فامحه ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت . وعندك أم الكتاب فاجعله سعادة ومغفرة(٣) . « والعقيدة أنه لا تبديل لقضاء الله . وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء »(٤) ومن القضاء ما يكون واقعاً محتوماً ، وهو الثابت . ومنه ما يكون مصروفاً بأسباب ، وهو المحو ، والله أعلم(٥) وقال عكرمة : يمحو ، يعنى بالتوبة جميع الذنوب . ويثبت بدل الذنوب حسنات . قال تعالى : « **إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** »(٦) .

وواضح أن المحو والإثبات يصح أن يطلق على كل هذه الأشياء المختلفة ، وعليه يمكن قبول رأى القرطبى(٧) حينما ذهب إلى أن الأظهر أن تكون الآية الكريمة عامة فى جميع الأشياء . والله أعلم .

والعرب يطلقون لفظة الأم على ما جرى مجرى الأصل للشىء ، كقولهم أم الرأس للدماغ ، وأم القرى مكة(٨) . قال ابن عباس : أم الكتاب الذكر(٩). وقيل : أم الكتاب اللوح المحفوظ الذى لا يبدل ولا يغير(١٠). وقال قتادة : أى جملة الكتاب وأصله(١١) . وفى الكشاف(١٢). أن أم الكتاب

---

(١) المائدة : ٤٨ .
(٢) تفسير القرطبى : ص ٣٥٥٨ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٣-١١٢ .
(٤) تفسير القرطبى : ص ٣٥٦١ .
(٥) تفسير القرطبى ، ص ٣٥٦١ .
(٦) البحر المحيط : ٥-٣٩٨ .
(٧) تفسير القرطبى : ص ٣٥٥٨ .
(٨) انظر البحر المحيط : ٥-٣٩٩ .
(٩) البحر المحيط : ٥-٣٩٩ .
(١٠) تفسير القرطبى : ص ٣٥٦٢ .
(١١) تفسير ابن كثير : ٢=٥٢٠ .
(١٢) ٢-٤٦٩ .

أصل كل كتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، لأن كل كائن مكتوب فيه .

فإذا تحولنا إلى الآية الكريمة التالية :« **وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك . فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب** » . تبينا أنها بمثابة التسلية للمصطفى صلى الله عليه وسلم وتثبيت الفؤاد . إذ يفهم صلى الله عليه وسلم أنه عز وجل معه دائماً وأبداً . وأنه لن يتخلى عنه مطلقاً ، وأن وظيفته عليه الصلاة والسلام ، تقف عند البلاغ بشيراً ونذيراً . وعليه جل وعلا ، الحساب فى الآخرة ، أو فى الدنيا أثناء حياته صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته . ولو أننا قسمنا الآية الكريمة قسمين لتبينا أن كل قسم يسير على غرار الآخر فى تكونه من شطرين ، يساير أحدهما الآخر . وتفسير ذلك أن القسم الأول يتحدث عما يمكن أن ينزل بهؤلاء الكفار فى حياته صلى الله عليه وسلم وبعد الوفاة « **وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك** » وفى الكلام بلاغة بالحذف . وتقدير الكلام : وإما نرينك بعض الذى نعدهم فذاك . أو نتوفينك قبل تعذيبهم فيصيبهم فى حياتهم أو بعد مماتهم ما نعدهم . إن الشطر الأول يتعلق بالحياة ، ويقابله فى القسم الثانى « فإنما عليك البلاغ » وإن الشطر الثانى : « أو نتوفينك » يتعلق كما هو واضح بوفاته صلى الله عليه وسلم ، وبالعذاب الذى ينال هؤلاء فى الآخرة ، بعد الوفاة ، أو فى الدنيا ، ويقابله فى القسم الثانى « وعلينا الحساب » . ومع أن لفظة حساب تتمشى أكثر مع يوم القيامة ، حتى يحاسب الناس إثر البعث والنشور ، فإن الحساب يمكن أن يكون فى الدنيا ، فى هيئة العذاب الذى يحل بالكافرين انتقاماً منهم فى الدنيا قبل الآخرة . ومن مظاهر هذا العذاب ما تشير إليه الآية التالية « **أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ، والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب** » .

« نأتى » يعنى بالأمر والقدرة ، كقوله : « فأتى الله بنيانهم »(١) إن على كفار مكة ومن فى حكمهم أن يعلموا أن العذاب الذى ينالهم فى الدنيا .

---

(١) البحر المحيط : ٥ـ٤٠٠ .

إنما هو انتقام من الله تعالى وتنكيل بهم . ومن مظاهر ذلك العذاب ، أن دار الإسلام تتسع على حساب دارهم ، فهذه هى سرايا المصطفى صلى الله عليه وسلم تغزو المناطق المحيطة بمكة المكرمة . وهذه الأمم المحيطة بهم تدخل فى دين الله تعالى أفواجاً ، ويفهم من ذلك ضمناً أن الدنيا ستضيق بكفار مكة وسيحاصرهم الإسلام ويغزوهم المسلمون فى عقر دارهم . وتتحول ديارهم إلى ديار إسلام . وذلك هو الذى حصل مستقبلا .

إن ذلك قد سبق فى قضاء الله تعالى وحكمه الذى لا يعقب عليه معقب ولا يرد . فقد شاءت إرادته عز وجل أن ينتصر رسله ، وأن يغلب جنده ، وأن يكون حسابه للكافرين سريعاً ، وإن بدا لنا أنه تباطأ . وعسيراً فى الدنيا والآخرة . وهؤلاء الكفار ، يعذبون أشد العذاب بانتصار المسلمين المستمر وانتشار الإسلام الدائم . إنهم تربصوا بالرسول وبالفئة المؤمنة وبالإسلام الدوائر ، فرد الله تعالى كيدهم فى نحورهم ، وأحال عاقبة مكرهم عليهم ، لأن الهزيمة التى أرادوها للإسلام ، حاقت بهم . والعز الذى أرادوه لهم ، جعله الله تعالى من نصيب المسلمين . جاء فى الآية الكريمة التالية قوله تعالى : « **وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا . يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار** » .

إن على كفار مكة أن يعلموا يقينا ، أن المصير المخزى الذى انتهى إليه الكافرون السابقون ، هو المصير الذى ينتظرهم . لقد مكر الذين من قبلهم برسل الله تعالى وبالفئة المؤمنة ، بقصد إطفاء نور الله تعالى ، فأبى الله تعالى إلا أن يتم نوره . وإن كفار مكة يفعلون ما فعل الكافرون أمثالهم مع رسل الله تعالى السابقين . أراد كفار مكة أن يمكروا به صلى الله عليه وسلم على نحو ما أشار قوله تعالى فى سورة الأنفال : « **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك . ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** »(١) وأرادوا أن يمكروا بالمؤمنين تعذيباً وتطريداً وتقتيلا . وأرادوا أن يمكروا بالإسلام محاصرة فإطفاء ، وقد شاءت إرادته عز وجل أن ينتصر هذا الدين رغم إرادة كفار مكة ومكرهم .

---

(١) آية : ٣٠ .

وبما أن المكر الذى أراد كفار مكة أن يلحقوا عن طريقه الأذى بهذا الدين ، قد انقلب عليهم بإرادة الله تعالى ، وبالتالى وصل الخير إلى المؤمنين ، والشر إلى الكافرين ، وبما أن لفظة المكر قد استعملت فى حق الكافرين ، وبما أن الحفرة التى حفروها للمسلمين قد وقعوا فيها بإرادة الله تعالى ونجا المؤمنون ، فقد عبر بالمكر عن هذا العمل الذى يعتبره الكافرون الماكرون مكراً بهم ، من باب مراعاة النظير أو المقابلة . كقوله : « الله يستهزئ بهم »(١)

وبما أن مكر الكافرين شر محض ، وبما أن ما حل بالكافرين من خيبة أمل وسعى ، وبالمؤمنين من نجاح أمل وسعى هو الخير فى الحقيقة كل الخير ، لأن الكافرين بعد أن تتكشف الأمور ينتهون إلى أن ذلك الذى اعتبروه شراً ومكراً أول الأمر هو خير خالص فى حقيقته ، لذلك ينبغى أن نفهم المكر فى مثل قوله تعالى : « فلله المكر جميعاً » من هذه الزوايا المختلفة . هو فى نظرهم أثناء كفرهم مكر . لأن نفوسهم الشريرة تؤول كل شىء لا يتفق وهواها وتعتبره مكرا . وهو فى نظر المؤمنين خير لهم ، وكذلك هو خير فى حقيقته للكافرين ، لأنه وإن كان فى ظاهره سوءً للكافرين ، فبما أنه يحملهم على العودة إلى الصراط المستقيم ، فهو إذاً خير باعتبار ما يؤول إليه . ولهذا جمعت آية سورة الأنفال الآنفة الذكر بين المكر والخير ، منبهة إلى ضرورة مراعاة هذه الزوايا المختلفة . إن لفظة مكر تتعلق بظاهر الفعل . وإن لفظة خير تتعلق بجوهر الفعل ولبه وما يئول إليه . وهذا المكر بالكافرين الذين يعنى خيراً للمؤمنين ، هو فى مقابل عمل كل من الفريقين الذى دون فى كتاب الأعمال ، ومحاسبة كل فى الدنيا قبل الآخرة .

أما إحصاء ما قام به كل إنسان مؤمن أو كافر ، فقد أشار إليه قوله تعالى : « يعلم ما تكسب كل نفس » . وأما العذاب فى الدنيا فقد أشار إليه الكثير من الآيات فى السورة الكريمة ، وبخاصة هذا القسم الأخير من السورة . وأما العذاب فى الآخرة فقد ختمت به الآية الكريمة « وسيعلم الكفار لمن

---

(١) البحر المحيط : ٥ـ٤٠٠ .